المبحث الثاني

وصف الرّحلة

لقد كان الإنسانُ ، ولا زالَ في رحلةٍ دائمة ؛ يرتحلُ من المهدِ إلى الفناء ، وترتحلُ الدنيا به من حالٍ إلى حال ، ويسيرُ في هذا الزَّمن ، أو يسيرُ به ، كلٌّ على رِحلَة وكلّ على راحلَةٍ ، كما قال ابن حمديس(١) :

حللتُ بيومي إذ رحلتُ عــن الأمــسِ وسرتُ ولم أُعمِل جَــوَادِي ولا عَنْسِــي
مراحـــلُ دنيانـــا مراحلنُـــا الـــتي ثرانا عليهـــا نقطـــعُ العـــيشَ بـــالخمسِ

لقد ((كان العرب في معظمهم بُداةً رُحَّلاً لا يستقرون على حال ، وظلُّوا على هذا المنوال يقطعون بالنَّاجياتِ الشِّداد ما اتَّسع من القفار أو الفلوات فراراً من الغزو ، أو طلباً للكلأ والماء ، أو طمعاً في مغانمَ ومكاسبَ كانت تسمحُ بها الأعرافُ ، وتقرها الحياةُ حياةُ البادية ، حيث الصّراع من أجلِ البقاء ، والتنافس في سبيل الحصولِ على ما أمكنَ الحصول عليه من غذاء أو كساءٍ أو رعاء))(٢).

وقد استمرَّت الرِّحلةُ لأسبابَ متعدِّدة ، وكان الارتحال قسريًّا أو اختياريًّا ، فالحركة التي هي صلبُ الحياة وقوامها ، قد طبعت الإنسان بطابعها ، وفرضت عليه أن يكون ساعياً دؤوباً ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك:١٥).

وقد كان الشعرُ العربيُّ ـ في نفسه ـ مرتحلاً قطع مشقَّاتِ السفرِ من قلوب مبدعيه ، وارتاحَ في صدورِ متلقّيه ، وانتشا الشُّعراءُ بالتغنّي بما فيه من بداوة

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٢٨٠ .

(٢) امرؤ القيس شاعر اللهو والغزل والطلل ، دكتور يحيى شامي ، ص٤٣ .

الصُّور ، عبر الأجيالِ الممتدَّة ، والبيئاتِ المختلفة ، فترسَّم الأندلسيُّون صورَ الرِّحلةِ البدويَّة بمختلفها في قصائدهم .

والرحلة ـ في الحقيقة ـ كانت مظهراً حياتيًّا من مظاهر العصر الأندلسي الذي شغلت فيه حيِّزاً كبيراً من إنتاج الأدباء والشعراء ، فقد وجدنا المقَّري يفردُ الباب الخامس من كتابهِ نفح الطيب ((في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق))[1] وهم كثيرون .

فقد كان الأندلسيُّون يرتحلون من الأندلس إلى سواها طلباً للعلمِ، أو الرزق، أو الحج أو غيره ، أو من مدن أندلسيَّةٍ لأخرى هرباً من ظُلمِ حاكم أو حسدِ بطانة ، إلى من يتوسَّمُ منهم العدل والخير ، أو هرباً من الحروب وغزواتِ النَّصارى التي أسقطت الدويلاتِ الأندلسيَّةِ واحدةً بعد أُخرى ، وما إلى ذلك وغيره ، من مجملاتِ أسباب الرِّحلةِ وغاياتها .

ولا يعنينا هنا الرِّحلة بذاتها في الشِّعر الأندلسيّ بقدر ما يعنينا من تتبُّع الشعراءِ في صورِ الرِّحلةِ للخُطا البدويَّة في الشعر ، فالرحلةُ ـ حقيقيةً كانت أو خياليَّة ـ في الشعر الأندلسيّ، لم تخلُ من معالم الصُّور البدويَّةِ، وعناصرها .

فلم يتخلَّ الشَّاعرُ الأندلسيُّ عن بداوتِهِ ، ولم يترك تماماً صحراءَه وبعيرَه ، وإنَّما انتقلت هذه الصحراءُ والبعيرُ والرحلة والراحلةُ والمطايا والركب ، والنباتات ، والواحات ، بكلّ ما فيها من امتدادٍ صحراويٍّ يشهد على الرَّحابة والنَّقاء ، انتقلت هذه الصحراءُ في داخلِ موروثِهِ وفكره وثقافته وبيانه وأدبه وشعره .

ونحن إذا وجدنا قوالبَ تعبيريَّة بدويَّةٍ في الشعر الأندلسيّ لا يهمنا إلاّ أنّها تعبِّرُ عن حالةٍ وجدانيةٍ في قلبِ الشاعر ، عاشها أم لم يعشها ، عاصرها أم لم يعاصرها ، ولكنَّها اتَّخذت في داخل نفسه قالباً تعبيريًّا بدويًّا خاصًّا يشى بما في النفس من انفعالاتِ تجاه الحياةِ وتجاربها .

---

(١) نفح الطيب ، المقّري ، ٢/٥ .

يقول ابن عبدون مشبّهاً قيمة بلده التي ارتحلَ عنها ـ في نفسه ـ بقيمة المكان البدويّ فيها ، ممّا يدلُّ على تجذُّر المدلول الحنينيّ للمكان البدويّ[1]:

وتركتُ أرضَ الغربِ وهي كأنّها ... بيَ عالجٌ[2] أو ضارجٌ[3] أو زمزمُ[4]

((وهكذا نرى أنَّ تاريخ هذا الشعر هو حقًّا تاريخُ الرَّحيل ، فالناطقون بالعربيَّة ، يرحلون إلى شتَّى البقاع ومعهم فنُّهم الأوَّل الذي قال فيه الرسولُ عليه السلام : لا تتركُ العربُ الشعر حتى تتركَ الإبلُ حنينها .

والحقُّ أنَّ هذا الشعر احتفظ بشخصيَّته ، وظلَّ في مختلف عصوره نهراً واحداً متَّصل المجرى ، قد يضعف أحياناً ، وقد تلوَّن الأحداث مياهه بألوانها المختلفة ، ولكنَّه ظلَّ ذلك النهر الواحد الجاري بلا انقطاع))[5].

وقد ذكرنا أنَّ الشعر الأندلسيَّ كان فيه وصفٌ كثيرٌ للرِّحلة ، وضروبٌ كثيرةٌ من الرِّحلة ، منها : الرحلةُ إلى الديار الحجازيَّة ، للحج ، ولزيارة قبر الرسول ﷺ ، ونسميِّها تجوّزاً الرحلة النبويَّة .

وسنعرض لها ـ بإذن الله تعالى ـ مع المديح النبوي لأنَّها كانت أعلق بالمدح النبويِّ منها بالرِّحلة .

ومنها : الرحلة للممدوح ، وهي التي اتخذها الشَّاعرَ تقليداً شعريّاً لبيانِ عنائِهِ ومشقّةِ السَّفر في الوصول إلى من يرتجى عنده ـ بعد الله ـ المثوبةَ وإجزال العطاء .

ومنها : رحلةُ الصاحبة ، وهي صورة الظعائن في وصف الرَّحيل ، وقد عرضنا لها في فصل النسيب ومنها أيضاً رحلاتٌ أخرى يقوم بها الشَّاعر ، إمَّا للّحاقِ بصاحبتِه ، أو للتسلِّي عن الهموم التي اكتنفته به ، أو طلباً للرزق ،

---

(١) ديوان ابن عبدون ، ص١٨٠ .

(٢) عالج : رمالٌ معروفة بالبادية ، موضع بالبادية ، انظر : اللّسان ، مادة (علج) .

(٣) ضارج : اسم موضع معروف قيل في بلاد عبس ، انظر : اللّسان ، مادة (ضرج) .

(٤) زمزم : بالفتح بئر بمكة ، انظر : اللّسان ، مادة (زمم) .

(٥) الرحيل في تاريخ الشعر العربي ، دكتور صلاح عيد ، ص٢٥ .

أو الحرب ، أو الجاه ، وما إلى ذلك من غايات وأهداف ، نسميها تجوُّزاً رحلة المغامرة .

ونحنُ هنا لا نستقصي جميعَ أنواع الرَّحلاتِ أو نخضعها للقسمةِ الدَّقيقةِ الفاصلة ؛ لأنَّ هذه الأمور لا تجوزُ في الشعر ، ولكننَّا نحاول ـ قدر المستطاع ـ أن نصنِّف الرحلة حسب ما اقتضاهُ القصيدُ ـ ممَّا يُفهم منه ـ وألاَّ نأخذ من هذا الشعر إلاّ ما حوى العناصرَ والسماتِ البدويّةِ المتوارثةِ عن الرحلةِ ـ وهو كثيرٌ في الشعر الأندلسيّ ـ ولكننا سنحاول الإيجاز في الاستشهاد ممَّا يُغني عن هذا الكثير .

وصف الرحلة للممدوح :

يقول ابن قتيبة مستعرضاً بناءَ قصيدةِ المدح أنَّ الشاعرَ بعد أن يصفَ الوقوف ، والديار ، ورحلة الظعائن ثمَّ النسيب ((إذا علم أنَّه قد استوثق من الإصغاءِ إليه ، والاستماع له ، عقَّبَ بإيجاب التحقيق ، فرحَلَ في شعره ، وشكا النَّصبَ والسهرَ وسُرى الليل ، وحرَّ الهجير ، وإنضاءَ الرَّاحلةِ والبعير ، فإذا علم أنَّه قد أوجبَ على صاحبهِ حقَّ الرَّجاءِ وذمامةَ التأميل ، وقرَّر عنده ما ناله من المكارِه في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة وهزَّه للسماح ...))[1].

ويقول ابن رشيق : ((والعادةُ أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز وما أنضى من الرِّكائب وما تجشَّم من هولِ الليل وسهره ، وطول النهار وهجيره ، وقلَّةِ الماءِ وغؤوره ، ثمَّ يخرج إلى مدح المقصود ، ليوجب عليه حقّ القصد ، وذمام القاصدِ ، ويستحقّ منه المكافأة ...))[2].

وقد ذكر ابن رشيق قبل هذا الرَّأي اتخاذ بعض الشعراء طريق أهلِ الباديةِ في افتتاح القصائدِ بالنسيب و ((ذكرَ الرَّحيل والانتقال ، وتوقُّعَ البين والإشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول ...))[3].

---

(١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٥ .

(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١/٢٢٦ .

(٣) المصدر السَّابق ، ١/٢٢٥ .

ثمَّ يقول : ((أنَّ منهم من سلك في ذلك مسلك الشعراء اقتداءً بهم واتباعاً لما ألفته طباعُ الناس معهم ، كما يذكر أحدهم الإبل ، ويصف المفاوز على العادة المعتادة ، ولعلَّه لم يركب جملاً قط ، ولا رأى ما وراء الجبَّانة ...))[1].

فنصَّ بذلك ابن رشيق على أنَّ الشعراءَ يسلكون مسلك أهل الباديةِ اقتداءً أو طريقةً في الشعر ، لا يستدعي تمثّلها مشاهدة عيان ، وشبَّه ذلك بمن ((يكون قولُه في النساءِ اعتقاداً منه . . . لئلا يخرج عن سلكِ أصحابه ، ويدخل في غير سلكه وبابه ...))[2].

وقد اتَّخذ الشعراءُ الأندلسيُّون كسابقيهم الجاهليين من وصف الرّحلةِ تعلَّةً ومركباً ، يصلون به إلى قلب الممدوح ، وصول القصيد إلى أُذنيه ، فيمهِّد الشاعرُ لما يريدُ بذكر الرِّحلةِ والترحُّل وتجشُّم الصعابِ واقتحام الأخطار ، حتّى يصلَ إلى المدح ((وسواءٌ أمهَّد الشاعر لهذا الانتقال وهيَّأ له أم فاجأ السامع فباغته به ، فإنَّ الذي يبدو من تواتر هذا المقطع في القصائد أنَّه يكاد يدخل في الأعرافِ الجماليَّةَ التي حكمت بناء المدحيَّات ، وكيَّفت صياغتها))[3].

ومقطع الرَّحيلِ في القصيدة المدحيَّة الأندلسيَّة ، أو في الشعر العربي بعامَّةٍ ، لا يعني ـ في الأغلب ـ استجداءَ الشاعر للمدوح عن طريقِ الإسهاب في بيان المشاق ، والتعب ، والإعياء ، والجهد ، وكأنَّه يتوسَّل إليه بصفاتِ الضعف الجسديّ والنفسيّ ، والتعلُّل بما لاقى في سبيلِ إجراءِ المكافأة ، بقدرِ ما قد تعني ـ على الأرجح ـ طريقةً في الشعر يبين بها الشَّاعر ـ من خلال وصف الرحلةِ والمشاق التي قطعها ـ عن جسارته وقوّته ، ويدلُّ بها بالتّالي على استحقاقه المكافأة على هذه الجسارةِ والقوّة ، واستحقاقِ الممدوح لأن يقطع

(١،٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١/٢٢٥ ، والجبَّانة : الصحراء ، انظر : اللّسان ، مادة (جبن).

(٣) جماليّة الأنا في شعر الأعشى الكبير ، حسين الواد ، ص٩٣ .

الشاعرُ في سبيلهِ كلَّ مخوف ، وهي طريقة أدبيَّة يعمدُ بها الشاعر إلى التلطُّف في الطلب ، وإثبات القدرة النفسيَّة والجسديَّة لذاتِهِ ، دون أن يكون متسوّلاً بالشعر ، ـ ولا نعني بذلك كلَّ الشعر ـ يقولُ ابن حمديس ، محتذياً في القصيدة الطريقة البدويَّة في البناء ، ولكنَّه لا يبدأ بوصف الطلل والدِّمن وآثار الديار ، كما ذكر ابن قتيبة ، وإنَّما بدأ بوصف الدَّمع والنسيب يقول[١]:

صدَّت سُليمى فما تأتي معاتبةً ... ولا عتابَ إذا حبلُ الهوى انصرَمَا

ويمضي في النسيب البدويّ ، فهي خودٌ مدلَّلةٌ ومهاةُ رمل ، ثم يصلُ إلى الرّحلة فيقول[٢]:

وبلدةٍ لطَمَت أيدي القلاصِ[٣] بنا ... منها وجوهَ قفارٍ بُرقعتْ ظُلَمَا
إذا رميتُ بلحظِ العينِ ساريَها[٤] ... حسبتهُ بين أجفانِ الدُّجى[٥] حُلُمَا
ساريت فيها هُداةً خلتهم رَكِبُوا ... رُبدَ[٦] النّقانِقِ[٧] فيها أيْنُقاً[٨] رُسُمَا[٩]
شَقُّوا بها جُنحَ ليلِ اليلِ رَحَلوا ... عن غُرّةِ الصُّبحِ من دَيجُورِهِ[١٠] غُمَمَا

فابن حمديس في صورة الرِّحلةِ هنا ، ركَّز على عنصرين منها ، وهما : الظلام الذي كان يكتنفُ المرتحلين واستعار له صفةَ البرقع الذي يغطّي الوجه ، ثمَّ أشبع الوصف بأن جعل الرَّكب فيه كالحلمِ للرَّائي لشدَّة الظلام .

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٤٧٠ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص٤٧١ .
(٣) القلوص : الفتيَّة من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلص) .
(٤) السَّاري : السائر ليلاً . انظر : اللِّسان ، مادة (سرا) .
(٥) الدُّجى : سوادُ الليل مع غيم ، ودجا الليل إذا تمَّت ظلمته وألبس كلَّ شيء . انظر : اللِّسان ، مادة (دجا) .
(٦) الرُّبد : النعام . انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٣٠٤/١ ، مادة (ربد) .
(٧) النقانق : الضفادع ، يشبَّه به الظليم ، ويقال ((كأن أعناقهم أعناق النقانق)) ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٤٧٣/٢ ، مادة (نقق) .
(٨) أينق : جمع ناقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوق) .
(٩) الرسيم : ضرب من سير الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (رسم) .
(١٠) الديجور : الظلمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (دجر) .

وعادَ أيضاً ، ووصف اللَّيل بالأليل إيغالاً منه في الصِّفة .

والعنصر الثاني : وصفه سرعة النُّوق التي شبهها بالظَّليم ، ثمَّ عاد فشبَّه الظَّليم بالنقانق وهي الضفادعُ لارتفاعِ أعناقها ، وهو في هذه الصّورة ، أضفى على المشهدِ معنى الوحشةِ والمخافة التي يمنحُها وصفُ الظَّلام في الصحراء ، ممَّا حدا بالرَّكب إلى الإسراع ، والالتجاء من جدب الصحراء إلى ديمة الممدوح[1]:

حادت بهم عن بقاعِ المحلِ جامحةٌ[2] ومن بنانِ عليٍّ زارَتْ الدِّيَمَا

وإذا كان ابن حمديس قد بدأ بالنسيب ، ثم ثنّى بالرِّحلة للممدوح ، استجلاباً منه للغيثِ والمطر ، ويعني به كرمه ، فابن درّاج بدأ القصيدةَ مُرتحلاً ، وألبسَ الرِّحلة من نفسه فقال[3]:

أخْفَضاً نوتْ فِينَا النَّوى ولعلَّها أجدَّ بها طولُ السُّرى فاملَّها

فبدأ القصيدة بلفظين من حقل البداوة ، وهما : (النَّوى) و (طولُ السُّرى) ، وهو لم يكتفِ بوصف الإدلاج في الظلام ، وإنَّما وصف العزمَ على الوصول إلى الممدوح رُغم هذا الظلام الذي يوشِكُ أن يُضِلّ يقول[4]:

وحاشَ لأصداءِ الفلا أن تصُدَّها بِنَا أو أضَاليلِ الدُّجى أن تُضلَّها
وأحْقِرْ بهولِ البحرِ أن يَسْتكفَّهَا[5] وأهْوِنْ بغولِ القَفْرِ أن يَسْتَزلَّها[6]
ولكن أيادي مُنذِرٍ نُذَرتْ بِهَا فكانت لنا منها قذًى وشَجاً لها

وبعد أن يصف كيف حازت الرِّكابُ (عزَّ الحياة)[7] وأنَّ الممدوح (مقيلَ

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٤٧١ .

(٢) جامحةٌ : مسرعة ، وأراد بها النُّوق ، انظر : اللِّسان ، مادة (جمح) .

(٣،٤) ديوان ابن درّاج ، ص٣٢٦ .

(٥) يستكفُّها : يردُّها ويمنعها . انظر : اللِّسان ، مادة (كفف) .

(٦) يستزلُّها : ينقلها ، انظر : اللِّسان ، مادة (زلل) .

(٧) ديوان ابن درّاج ، ص٣٢٦ .

العاثرين)[1] يشكو الصبابةَ والهوى ، وهنا يخفتُ الصَّوتُ البدويُّ قليلاً ، ليعودَ فيظهر من خلال وصفِ النُّوق[2] :

نجائــبُ وصَّـاها الجـديلُ وشـدقمٌ[3] بـالاَّ تمــلَّ الليــلَ حتّــى يملّهــا
فتخلــقُ بالإرقــالِ[4] ثــوبَ شَـبابِهِ وتتركُــهُ بــالأفقِ أشــيبَ أجْلَهــا[5]

ويُتبع ابن درَّاج وصفَ السير بقوله[6] :

فكم حَمَلَتْ مــن حُــرٍّ قلــبٍ مُولَّــهِ يُبلّــغُ عنــه الــنَّجمُ قلبــاً مولَّهــا
وكم ضمَّ ذاكَ الليــلُ مــن أمِّ شــادنٍ أضــلَّتهُ في جــوفِ الفَــلا وأضــلَّها
وقد بلــغَ الجهــدُ القلــوبَ حنــاجراً تبشِّرُها أن التَّناهي[7] مَــدًى لــها
فوشكانِ[8] يا منصورُ ما نُصِـرَ الأسَـى بسردٍ أقاصِــي الأرضِ نحــوكَ سُــبْلَها
ونادى نَداكَ الرَّكْــبِ في كــلِّ بلــدةٍ ألا بلِّغــوا هــذي الرِّكــابَ مَحَلَّهــا

وابن درّاج بعد أن جعل الظلام لا يقفُ عائقاً دون الوصول للممدوح ، أضافَ وصف ما في هذه الرِّحلةِ من مخافةٍ قد يضلُّ فيها الظبيُ عن أُمِّه ، وصورةُ الظبيةِ التي أضلَّت ابنها وأضلَّها ، صورةٌ بدويَّةٌ محضة ، وهي تجيءُ في الشعرِ البدويّ بتوليفاتٍ وتنويعاتٍ مختلفة ، وقد أشبع بعضُ الشعراء المعنى بوصف الحُرقةِ التي يمثِّلها ضياعُ الولد عن أُمِّهِ الوالهة ، ((والصّورةُ التي تأتي

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٤٧١ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص٣٢٧ .

(٣) الجديل وشدقم : فحلان من الإبل كانا للنعمان بن المنذر ، انظر : اللِّسان ، مادة (جدل) .

(٤) الإرقال : ضربٌ من الخبب ، وهو العدو السَّريع ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقل) .

(٥) أجْلَها : الجله ، ذهاب الشعر من مقدم الجبين ، انظر : اللِّسان ، مادة (جله) .

(٦) ديوان ابن درّاج ، ص٣٢٨ .

(٧) التناهي : جمع تناة أو تنهية ، وهي حيث ينتهي الماء من الوادي ، انظر : اللِّسان ، مادة (نهي) .

(٨) وشكان : سرعان ، وهو اسم للفعل وشك ، مثل سرعان ، انظر : اللِّسان ، مادة (وشك) .

على هذا الضّربِ كثيرةٌ جداً ، وقد ذهب العلاَّمة المرصفي رحمه الله إلى أنَّ الأعشى هو الذي اخترع هذا الأسلوب وأبان للشعراءِ عن هذا الطريق ، وليسَ الأمرُ عندنا كذلك ، لأن هذا اللَّون جرى في شعر الخنساء ، وشعر النابغة وغيرهم ممَّن عاشوا مع الأعشى ، وكان شائعاً شيوعاً يجعلُ من المستبعدِ أن يكون وليد زمانه ، لأنَّ الأساليب الجديدة تحتاجُ إلى زمان تطوعُ فيه وتلين ...))[1]، ولكنَّ ابن درَّاج اكتفى بأن التقطَ من المشهدِ البدويِّ صورةَ أمِّ الشادن ووليدها الذي أضلَّتهُ دون التوغُل في وصف الحالة النفسيَّةِ لها ، التي هي من دقائق هذه الصُّورة ، وقد أضاف بن درّاج إلى وصفه الجهدَ في الرحلةِ اقتباساً من القرآن الكريم ، من قوله تعالى في سورة الأحزاب عندما وصف ـ سبحانه ـ شدَّة الموقفِ على المسلمين ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾[2]، فجعل الجهد والعناءَ يرفعُ القلوب إلى الحناجر ، وفي هذا كناية عن شدّة الأمرِ على أصحابه ، وقد أخذها ابن درَّاج بلفظها من القرآن الكريم ، فالقصيدة أخذت من حقول البداوةِ في وصف الرحلة ، وقد أشاع قول ابن درَّاج (النَّوى) في أولها ـ وهي مفردة خصبة ـ رنيناً بدويّاً في القصيدة ، وتوليداً للمعاني التي جاءت بها هذه الكلمة الأم ، التي استدعت (السُّرى ، الفلا ، القفر ، الرَّكب ، التناهي . . .) ممَّا هيَّأ به مدخلاً بدويّاً للحديث عن الممدوح ، وابن درّاج ركب ناقته إلى الممدوح كما قال ابن قتيبة ، ولكنَّه خالف النظام التقليدي المعروف لقصيدةِ المدح البدويَّة ، فلم يبدأ بالوقوف على الطلل والدِّيار ، ثم النسيب والتشوّق وصولاً إلى الرحلة ، فهو بدأ القصيدة مرتحلاً ، وداخَل في الرّحلة المدحَ ، وزاوج بين بلوغ السَّعي ، والوصول إلى مُقيل العاثرين وهو الممدوح ، ثمَّ توارت البداوة شيئاً فشيئاً ، وخفت صوتها ، ولكنَّها برزت ثانية ، فكانت تحضر وتغيبُ في القصيدة ، وكان حضورها مؤنِساً لافِتاً .

---

(١) التصوير البياني ، دكتور محمد محمد أبو موسى ، ص٧٧ .

(٢) قال تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب: ١٠) .

وقد بدأ ابن فُركون أيضاً بالمدح مرتحلاً ، ولكنّه لم يصف الرّحلة وإنضاءَ الرَّاحلةِ والجهد والمشقَّة قبل المدح ، وإنَّما بدأها بخطابِ الحادي ، وصورةُ الحادي من صورِ الرِّحلة التي هي بنتُ البادية ، ومولودةٌ من رحمِ الفيافي ، وقد شاع ذكرُ الحادي والرَّحل ، والعيس ، في بيان العرب ، يقول ابن فُركون[1] :

حاديَهــا أيــن بــهــا تــذهب؟ إذْ لــيس عــن وِرد المــنى مــذهبُ

فهو يبدأُ مُسائلاً حادي البعير عن وجهته وقد وصلَ إلى الممدوح وهو الوردُ والمرتع والمرقب[2] :

هــذا هــو الرَّبــعُ بــه للظّبــا والأنجــمِ المرتــعُ والمرقــبُ

إن تسأل الرفــدَ يجُــدْكَ الــحَــيَــا أو تستَضــيءْ فــالنورُ لا يُحجــبُ

فابن فُركون يوجِّه الرِّحلة من بدايتها إلى مقصده من القصيد وهو المديح ، إذْ يتحدَّث بعد ذلك عن الرِّفد والنُّور اللَّذين ينتظران المرتحلين ، وهم قد أدلجوا حتَّى شاموا سنا البرق من جهة هذا الممدوح الذي هداهم إليه بنوره ، يقول[3] :

لا يظمــئُ الوجــدُ الحمــولَ الــتي سَــرَت ومــن دَمعــي لهــا مَشْــرَبُ

شــامت سَــنَا بارِقهــا كلَّمــا يجــيءُ في الظلمــاءِ أو يــذهبُ

إن هُــزَّ فهــو ذابــلٌ مُشــرعٌ أو سُــلَّ فهــو صَــارمٌ مُــذهبُ

وأدهــمُ اللَّيــلِ يُجــدُّ السُّــرى يتبعُــهُ مــن صُــبحهِ أشْــهبُ

وابن فُركون يُسبغُ على الرَّاحلةِ من نفسِهِ أو من نفسِ المرتحلين عندما قال (شامت سَنَا بارِقها) والمرادُ بذلك القوم المرتحلون ، ثمَّ يُسبغُ على الليلِ من صفاتِهِ أو صفاتِ صَحْبِهِ فيقول (وأدهمُ اللَّيلِ يُجدُّ السُّرى)[4] ، وأراد بذلك أنَّ القوم المرتحلين يُجدُّون السير في الليل ، فذكر الليل وهو يقصد المسافرين فيه ، فالشاعر هنا ، لم يصف اقتحام المجاهل ، وخوض المصاعب وإنضاءَ

(١-٤) ديوان ابن فُركون ، ص١٠٧ .

الراحلةِ ، وحرَّ الهجير ، وظمأ العيسِ ، وإنَّما وَجَّه الشعرَ من البداية وجهةَ الراحلة وهي (الممدوح) .

والشَّاعر في قصيدةٍ مدحيَّةٍ أُخرى ، بدأها بالرِّحلةِ وصفَ فيها نزوع الرَّاحلةِ إلى مكانِها القديم أو مكان صاحبتِه ، وشكواها من الوجَا ، ويصف كيف تألَّق البرق في السحاب فهدى الرَّكب المدلجين بعد أن اكتنفهم الظلام ، ويصف شكوى حُداةِ العيس من طول الرحلةِ والإدلاج ، فقال[1] :

أثارَ هواها نُزَّعا[2] تشتكي الوَجَا[3] سنا بارقٍ يهدي الركائبَ في الدُّجَا
تألَّقَ خفَّاقَ الجناحِ كأنَّما غدا مُزجياً[4] ركبَ السَّحائبِ مُزعِجَا[5]
أنارَ وقد أخفى الظلامُ سبيلَها فأسرعَ للتأويبِ[6] من باتَ مُدْلِجَا[7]
تقولُ حداةُ العيسِ إذ غالَها[8] السُّرى ألم يأنِ للإصباحِ أن يتبلَّجَا[9]

والقصيدةُ بدويَّة ، بدأت بالرِّحلة ثم وصف الطلل وهو مخالفٌ لما كان عليه التقليد الجاهليّ ـ غالباً ـ من البدء بالطلل ثمَّ الرِّحلة ، وقد وصف فيها الشاعر ارتحالَ الصاحبة ، وخلص من ذلك كلِّه إلى المدح فقال[10] :

ومن هامَ بالحسناءِ من غير حَيِّها فما القلبُ مرتاحاً ولا اللَّحظُ أذعَجَا

---

(١) ديوان ابن فُركون ، ص١٩٣ .
(٢) نزع : حنَّ ، واشتاق ، ومنه نزع الإنسانُ إلى أهلِه ، والبعيرُ إلى وطنه . انظر : اللِّسان ، مادة (نزع) .
(٣) الوجا : أن يشتكي البعير باطن خفِّه . انظر : اللِّسان ، مادة (وجا) .
(٤) يزجي السحاب يدفعُه ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجا) .
(٥) مزعجاً : مقلقاً . انظر : اللِّسان ، مادة (زعج) .
(٦) التأويب : سير النهار كلّه إلى الليل . انظر : اللِّسان ، مادة (أوب) .
(٧) مدلج : الإدلاج سير الليل كله إلى آخره ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلج) .
(٨) غالها : أهلكها ، انظر : اللِّسان ، مادة (غول) .
(٩) يتبلّج : يسفر ويشرق ويضيء ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلج) .
(١٠) ديوان ابن فُركون ، ص١٩٣ .

ومَن أمُّ بَحر الجـودِ والعلـمِ لا يُـرى على غيرِ مولانـا ابـنِ نصـرٍ مُعرِّجَـا

فهنا لم يبدأ الرِّحلة مادحاً كما فعل في القصيدةِ السابقة ، بل فصل بين وصف الرِّحلةِ والمدح بأبياتٍ الطلل والظعائن ، والنسيب ، ثمَّ تخلَّص إلى المدح .

أمَّا ابن الزَّقَّاق ، فلهُ من قصيدةٍ بدأها بذكر نجد والمرور على الطلل ، ثم وصف رحلةَ الظعائن التي تخلَّص بها إلى المدح فقال[1]:

فسـقتهمُ حيـثُ ارتمـتْ برِحـالِهم هَـوَجُ الرِّكـابِ روائـحٌ وغـوادِي
ينـهلُّ وابلُهـا كمـا ينـهلُّ مـن يُمـنى أبي الفضـلِ الكـريمِ أيـادي

ثمَّ تنهال أوصاف الممدوح في القصيدة ، ويسبغُ الشاعرُ من المدح على وصف الرِّحلة ، فسيرتُه العطرةُ كانت حُداءٌ للعيس ، وإذا أدلج الرَّكبُ حتّى أخذتُهم سنةُ الكرى نبَّهَهم ساطعُ نوره ، يقول[2] :

تُحدى به الأنضاءُ[3] عند لغوبِـها[4] فتـهيمُ بالتأويـبِ والإسـآدِ[5]
وإذا الدُّجى أرخى السدولَ ورنَّقـت[6] سنةُ النُّعاسِ بـأعينِ الـهُـجَّـادِ[7]
نبَّهتُ لـلإدلاجِ[8] صَـحبيَ فاهتـدُوا بضـياءِ كوكـبِ عزمِـهِ الوقَّـادِ

وقد سبقه إلى هذا المعنى ذو الرُّمة عندما وصف الرَّاكب الذي غشيه النُّعاس

---

(١) ديوان ابن الزَّقَّاق ، ص١٤٥ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص١٤٧ .
(٣) الأنضاء : جمع نضو ، وهو البعير المهزول ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .
(٤) اللغوب : التعب والإعياء ، انظر : اللِّسان ، مادة (لغب) .
(٥) التأويب والإسآد : التأويبُ السيرُ نهاراً نظير الإسآد ، وهو السير ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (أوب) .
(٦) رنّقت : رنّق النوم في عينه ، خالطها ، انظر : اللِّسان : مادة (رنق) .
(٧) الهجَّاد : جمع هاجد وهو النائم ، انظر : اللِّسان ، مادة (هجد) .
(٨) الإدلاج : سير السَّحر ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلج) .

فوق راحلته وشبهه بالميت ، فلمَّا ذكرت (ميُّ) نشط وأفاق وحَيَا ، يقول ذو الرُّمة[1] :

إذا ماتَ فوقَ الرَّحلِ أحييتُ روحَهُ بذكراكِ والعيسُ المراسيلُ جُنَّحُ

والفرق بينهما في الصُّورة ، أنَّ ابن الزَّقَّاق نبَّه أصحابه من نُعاسهم بنور الممدوح ،أمَّا ذو الرُّمة فقد أحيا روح الراكب الميت بذكرِ من يحب .

فذو الرُّمة كنَّى عن شدة نعاسِ المرتحلِ بالموت ، وعن حلاوة ذكر المحبوبةِ بالحياة ، وهذا المعنى أقوى منه عند ابن الزَّقَّاق الذي وصف النُّعاس والتنبيه ، فقد اشتركا في بيان أنَّ الشاعر لم ينم ، وهو الذي نبَّه أو أحيا صحبه ، وأنَّ الممدوح أو المحبوبةِ كانا سبباً للنشاط والحياة ، واختلفا في الإبانة عن هذا المعنى .

ويأتي لسان الدين بن الخطيب أيضاً بتشبيه للممدوح بالبرق الذي هَدَى الرَّكب إليه ، ولكنَّه يضيف إليه هيجان الرَّاحلةِ عند رؤيةِ هذا البرق ، حتّى لم تُطِق العقال ولا الزِّمام ، وحتّى ظُنَّ بها الجنون ، مبالغةً منه في وصف اشتياقها للممدوح ، ممَّا يدلُّ به بالتالي على نفسه ، يقول[2] :

رأتْ ، والليلُ قد سَدَلَ الرُّواقا[3] شُعاعَ البرقِ يأتلقُ[4] ائتلاقَا

وحقَّقَتِ الوميضَ وميضَ نجد فهاجَ فؤادَها نجدٌ وشَاقَا

ونازَعها الزِّمامُ[5] فما ثناهَا وعارضَها العِقَالُ[6] فما أطاقَا

تقولُ لي السُّراةُ وقد أجدَّتْ أخبلاً تَشْتكِي قلتُ : اشتياقا

---

(١) ديوان ذو الرُّمة ، ص٤٢٠ .

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٧٠٦/٢ .

(٣) رواقا الليل : مقدمه وجوانبه ، انظر : اللِّسان ، مادة (روق) .

(٤) يأتلق : يلمع ويضيء ، انظر : اللِّسان ، مادة (ألق) .

(٥) الزمام : الحبلُ الذي يُجعل في البرة والخشبة ، ثم يُشدُّ في طرفه المقود ، انظر : اللِّسان ، مادة (زمم) .

(٦) العقال : الحبل الذي يُشدُّ به البعير ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقل) .

إلى ((عمر بن عبد الله)) حنَّت ركابي فهي تستبقُ استباقا

ويلفتنا هنا توظيف الشّاعر (لنجد) وهي المكان البدويّ ذو القيمة الحنينيَّة العميقة ، في معرض وصفه حنينَه هو أو راحلته ـ سيان ـ للممدوح .

فالرِّحلةُ للممدوحِ في الشعر الأندلسيِّ كانت بدويَّة العناصر والسِّمات ، ولكنَّ الشاعر في سياق بناء القصيدةِ المدحيّة ، لم يأتِ بها ـ دائماً ـ على النَّسق الجاهليّ الذي يجتمع فيه ـ غالباً ـ وصف الطلل والنسيب ثم رحلةُ الظعائن ثم الرحلةُ للممدوح ، مع محاولة الشاعر الأندلسيّ جمع العناصر التي يكثر وجودها في هذه الرِّحلة ، وهي كما ذكر ابن قتيبة شكوى النصب والسهر ، والحرّ ، والسُّرى ، وإنضاء الرَّاحلة . . . ، وغير ذلك[1] .

فقد يأتي الشَّاعرُ الأندلسيّ بمعظم هذه العناصر البدويَّةِ في وصفه الرِّحلة ، كما قد يكتفي بعنصرٍ أو أكثر ، ويترك غيره ، كما قد يأخذ من عناصر رحلةِ الباديةِ ليصف رحلةً أُخرى ، كما في قصيدةٍ لابن درّاج بدأها بتذكر الماضي ، وأيَّامِهِ المسعدةِ ، وندبٍ لعصر الشباب[2] :

وغصنُ شبابٍ علاهُ المشيبُ كغصنِ رياضٍ علاها الهشيم

وفي القصيدةِ شجنٌ وشكوى وحِكَم : (فنحن ديون النَّوى كلَّ يوم)[3] .

ثم يقف الشاعر على طللٍ ، لم يكنِ طلل صاحبةٍ كما جرت عليه العادةُ الجاهليَّة ، وإنما يقف وقفة النّفسِ أمام طلل الذَّات[4] :

وتلك المعاهدُ منَّا رسوماً عَفَاهَا الذّميلُ بنا والرسيمُ

ومن رحمِ هذا الطلل ، وُلدت رحلةُ العمر التي بدأها بلفظيّ (الذميل والرّسيم) ، وأخذ لها من صفات رحلة البادية وسِمَاتها ، فجعل صلابةَ الأرضِ التي تضربُها الرواحلُ بأخفافها مقابلةً في الصُّورةِ لقوَّةِ الحوادث التي يعانيها

(١) انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٥ .

(٢،٣،٤) ديوان ابن درّاج ، ص٣٩٠ .

الإنسان ، والسيرَ الحثيثَ على الجهد والمشقة والحرّ والظلام والعطش ، والخوف من المجهول في الرحلةِ البدويَّة ، مقابلاً في الصورة للسير في الحياة ، ومكابدةِ الهموم ، على خوفٍ من المجهولِ أيضاً ، وترقُّبٍ للموت ، يقول[1]:

بسيرٍ يقولُ الصَّفَا[2] الصُّمُّ[3] منهُ ... أمَا للحوادثِ قلبٌ رَحيم
أما يُستقَالُ[4] الزَّمانُ الكنُودُ[5] ... أما يُستكفُّ[6] العذابُ الأليم
عن الأوجهِ المُتوالي عليها ... ليالٍ وأيام جَهدٍ حُسوم[7]
جسومٌ تطيرُ بهنَّ القلوبُ ... بأجنحةِ ريشُهنَّ الهمومُ
بكلِّ هجيرٍ لو النَّارُ تَصْلَى ... جحيماً لأصبحَ وهو الجحيم
كأنَّ رواحلنا في ضحاهُ ... صوادي[8] سَمامٍ[9] حداهُ السمومُ[10]
وفي كلِّ ليلٍ تغشَّى دُجاهُ ... فنامَ ولكنَّه لا يُنيمُ
كأنَّا وقد سَدَّ بابيه عنَّا ... وهامَ بنا الذُّعرُ هامٌ[11] وبومُ

فابن درَّاجٍ هنا يصف رحلة الحياة ، وهي صورةٌ فيها الكثير من الحزن والشجن والخوف ، والإحساسُ بثقل وطأةِ الهموم على النَّفس ، وهي رحلةٌ

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٣٩٠ .

(٢) الصفَا : العريض من الحجارة الأملس ، انظر : اللّسان ، مادة (صفا).

(٣) الصمّ : الصمَّاء من الأرض ، الغليظة ، انظر : اللّسان ، مادة (صمم).

(٤) استقال : طلب الإقالة ، أي الفسخ والترك ، انظر : اللّسان ، مادة (قيل).

(٥) الكنود : الشَّاق ، الصعب ، انظر : اللّسان ، مادة (كأد).

(٦) يستكفُّ : من الكفّ عن الشيء وردّه ، انظر : اللّسان ، مادة (كفف).

(٧) حسوم : أيَّام حسوم ، أيامُ شؤم ، انظر : اللّسان ، مادة (حسم) ، قال تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة:٧).

(٨) الصوادي : العطاش ، انظر : اللّسان ، مادة (صدي).

(٩) السمام : ضربٌ من الطير نحو السماني ، واحده سمامة ، انظر : اللّسان ، مادة (سمم).

(١٠) السموم : الريح الحارّة ، انظر : اللّسان ، مادة (سمم).

(١١) الهام : جمع هامة ، اسم طائر يُتشاءم منه ، وهو من طير الليل يألف المقابر ، وقيل هو الصدّى ، انظر : اللّسان ، مادة (هوم).

كئيبةٌ بالغةُ القتامة ، لم يصِف فيها الشاعرُ قوّةً وجسارةً وقطعاً للمهالك ، واستحقاقاً للمدح ، بل وصف انكساراً ، وخوفاً وشكوى من الظُّلم (وذاكَ مدى صرفُ دهرٍ يُضيم) [1] فهو يرتحل إلى الممدوح شاكياً لا منتشياً ، يقول[2]:

وكيف يُؤمَّلُ مولىً كريمٌ ويُخشَى من الدهرِ خطبٌ ذميم
وفي اسمِ المظفَّرِ فألُ الحياةِ ليَحيَا الغريبُ بهِ والمقيم

وابن درّاج استخدم عناصر الرّحلة الجاهليَّة القديمة استخداماً ظاهراً في شعره ، وبنى عليها كثيراً من قصائده ، ومن ذلك قصيدته الرّائية التي يقول في أوّلها[3] :

بُشراكِ من طولِ الترحُّلِ والسُّرى صبحٌ بَروحِ[4] السَّفْرِ[5] لاح فاسفرا[6]

بدأها بكلمتي (الترحُّل والسُّرى) وهما من معطيات الارتحال في البادية ، وفيها يصفُ الممدوح ، ثم يتحدث عن ارتحاله إليه عن طريق وصف المطايا والظّعن فهنَّ[7] :

ظُعُنٌ ألِفْنَ القَفْرَ في غَوْلِ الدُّجى وتركنَ مألوفَ المعاهِدِ مُقفرا
يطلبن لُجَّ البحرِ حيثُ تقاذفَتْ أمواجُهُ والبرَّ حيث تنكَّرا

فابن درّاج وصف الرِّحلة التي قطعها للممدوح ووصف فيها الجهد والمشقة التي عاناها فيها ، وهي طريقةٌ جاهليَّة بدويَّة ، ولكنَّه لم يقف على الديَّار ويبكي الظعائن ويرتحل لتسليةِ الهمّ ، بل حوَّر في بناء الشّعر ، وفي التقاليد الشعريَّة الجاهليَّة القديمة ، وجعل الظُّعن تقطع الفيافي باحثةً عن الممدوح ،

(١، ٢) ديوان ابن درّاج ، ص٣٩١ .
(٣) المصدر السَّابق ، ص٢١٥ .
(٤) الروح : الاستراحة والراحة ، انظر : اللّسان ، مادة (روح) .
(٥) السَّفر : المسافرون ، انظر : اللّسان ، مادة (سفر) .
(٦) أسفر : أشرقَ ، انظر : اللّسان ، مادة (سفر) .
(٧) ديوان ابن درّاج ، ص٢١٥ .

وأسبغ على المطايا من صفاته ، فقد أَلِفت القفر الموحشَ من طول سيرها فيه ، وهي هِيمٌ طمعت في ورد الممدوح : (هيمٌ وما يبغين دونكَ موردا) [1] ، ويأتي بالأوصاف البدويَّة المعروفة للنُّوق : فهي مشدودة الظهر (محبوكِ القرا) [2] يناسبُ قوّتها قوّة الرَّجاء في الممدوح (محبوك المنى) [3] وهي (نضو الآل) [4] أهلكتها رحلة الصحراء ، وهي (خوصٌ) [5] مثل (أنصاف البُرى) [6] ولكنَّها على هذا الجهد والتعب ، قطعت بالمرتحلين الصحراء ولم تستقر حتّى وصلت إلى الممدوح ، فكانت النتيجةُ مقابلةٌ لما تكبدَّته الرواحل ، وعاناه الرَّكب ، يقول [7] :

نَحَرت[8] بنا صَدرَ الدَّبور[9] فأنبطت[10] قلقَ المضاجعِ تحتَ جوٍّ أكْدَرَا[11]

وصَبَتْ إلى نحوِ الصَّبا فاستخلصتْ سَكَنَ اللَّيالي والنَّهارَ المُبصِرَا

فالدبُّور قابلها الصَّبا وهي الريح العليلة الطيبة ، والقلق الذي باعد الركب عن المضاجع ، قابله سكن الليالي ، والجوّ الكدر المُغبِر ، قابله النهار المبصر ، وهكذا نجد أنَّ الشَّاعر الأندلسي ، قد يوظِّف عناصر الرحلة البدويّة للممدوح ، في المدح ، ويجمع بينهما في أثناء الوصف .

(١-٧) ديوان ابن درّاج ، ص٢١٥ . .

ومحبوك : مشدود ، انظر : اللِّسان ، مادة (حبك) .

والنضو : البعير المهزولة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .

خوص : غائرة العينين ، انظر : اللِّسان ، مادة (خوص) ، وتوصف الإبل بذلك لشدّة تعبها .

والبرى : حلقة في أنف البعير ، انظر : اللِّسان ، مادة (بري) .

(٨) نحرت : استقبلت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نحر) .

(٩) الدبور : الريحُ التي تقابل الصَّبا ، انظر : اللِّسان ، مادة (دبر) .

(١٠) أنبطت : أخرجت . انظر : اللِّسان ، مادة (نبط) .

(١١) أكدرا : أغبرا ، انظر : اللِّسان ، مادة (كدر) .

وقد وجدنا أنَّ من الشعراء الأندلسيين من قد ينتشي بوصف أحوالِ الصبابة ، أو بوصف قدرتِهِ على اقتحام المهالكِ وتجاوُزِهَا ، عن طريقِ صورةِ الرّحلةِ البدويَّة ، كما فعل الشعراءُ الجاهليُّون ، ويجعلها مقدمةً للمدح ، فنحن نكادُ نلمسُ في قصيدةِ المدح التي يأتي فيها وصف الرّحلة ، مَلْمحًا فنيًّا دقيقاً ، فالرحلةُ إمَّا أن يتخذها الشاعرُ في القصيدةِ تَعِلَّةً ومركباً للوصولِ على الممدوح ،كما سبق ووجدنا في الأمثلةِ السابقة .

وإمَّا أن يأتي وصفُ الرِّحلةِ في القصيدةِ كمقدِّمة يتغنَّى فيها الشاعرُ بنفسه ، دون أن يصلها بوصفِهِ إناخَةَ الرَّكب في رحاب الممدوح ، أو شوقَه والرواحلَ إليه ، أو وردَها من معينِ كرمه ، وإنَّما تأتي صورةُ الرِّحلة هنا من بابِ التغنّي بالذات أكثر منها تغنيّاً بالممدوح ، وهنا تصبحُ الرحلةُ البدويَّةُ في القصيدة المدحيَّة مقدِّمةً للمدح ، أكثر منها وصفاً لرحلةٍ للممدوح ، ومن الأمثلةِ الكثيرةِ على ذلك ، قصيدةٌ لابن خفاجة يمدح بها قاضي الجماعةِ بقرطبةٍ بدأها بمخاطبةِ النَّفسِ من مثل قول الأعشى :

(ودِّع هريرة) [1] ، يقول فيها ابن خفاجة [2] :

جــرِّر مُــلاءةَ [3] كــلَّ يــومِ شــامسٍ واسْحَبْ ذؤابةَ [4] كل ليــلِ دامــسٍ [5]
واطلــعْ بكــلِّ فــلاةِ أرضٍ غُــرَّةً [6] غــرّاءَ [7] في وجــه الظــلامِ العــابسِ

---

(١) ديوان الأعشى ، ص٢٧٨ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٨ .

(٣) الملاءةُ : الإزار والريطة ، انظر : اللّسان ، مادة (ملأ) .

(٤) الذؤابة : منبتُ الناصية من الشعر ، انظر : اللّسان ، مادة (ذأب) .

(٥) دامس : مظلم ، انظر : اللّسان ، مادة (دمس) .

(٦) غرّةً : الغرة بياض في الجبهة والوجه ، انظر : اللّسان ، مادة (غرر) .

(٧) غرّاء : بيضاء ، انظر : اللّسان ، مادة (غرر) .

وانزلْ بـهـا ضيفاً لليـثٍ خـادرٍ[1] يَقْريـكَ أو جـاراً لظـبيٍ كـانسِ[2]
وإذا طَعِمْـتَ فمـن قنـيصٍ فلـذةٌ[3] وإذا شـربت فمـن غمـامٍ راجـسِ
والرِّيحُ تُلـوي عِطـفَ كـلِّ أراكـةٍ لِيَّ السُّـرى وَهْنـاً لعِطْـفِ النَّـاعسِ

فابن خفاجةَ هنا يحضُّ النَّفس على مواصلةِ الارتحال ، وذلك في الصورة التي أعطاها للتلفُّعِ بالشمس كنايةً عن السَّير في النهار ، وسحبِ ذؤابة الظلام كناية عن السير ليلاً .

وقد نظر في هذا المعنى لقول ذي الرُّمة[4] :

أقامَتْ بـهـا حتّى ذَوَى العودُ والقوسُ وسـاقَ الثُّريـا في مُلاءتِـهِ الفجـرُ

فشبَّه بياض الصبح بالملاءة ، والملاءة فيها معنى الرِّقةِ المناسب لإشراقةِ الصَّباح ،وقد أُعجب شاعرٌ أندلسيٌّ آخر بوصف ذي الرُّمة للفجر ، فضمَّن بيته شطر بيت ذي الرُّمة ، يقول ابن فُركون[5] :

كما لاحَ نورُ الشمسِ في رونقِ الضُّـحى ((وساقَ الثُّريَّـا في مُلاءَتِـهِ الفجـرُ))

وَوَصْفُ الرِّحلة عند ابن خفاجة بدويّ ، فقد كان العربُ يصفـون الـفلاة أو الصحراء الجرداءَ بالبياض ، إشارةً إلى أنَّها قاحلةٌ خاليةٌ من الزَّرع ، ولذا قال ابن خفاجة (غرَّاء) وأضاف لبداوة الصورة أيضاً وصف هذه الصحراء بالمهابةِ من خلال مشهد (الأسد الخادر) الذي قد يكون المرتحلُ ضيفـاً لـه ، أو بالأحرى طعاماً له .

وقد قابل في هذا المشهد بين المهابةِ والوحشةِ المتمثلةِ في الأسَد ، والجمالِ والأنس المتمثّل في الظبي ، الذي قد يعني به ظبياً حقيقيًّا ، أو امرأة أشبهت

---

(١) خادر : أسد خادرٌ مقيمٌ في عرينه داخل في الخدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (خدر).
(٢) الكانِس : الظبي يدخل في كناسه ، وهو موضعٌ في الشجر يكتنُّ فيه ويستتر ، انظر : اللِّسان ، مادة (كنس) .
(٣) فلذةٌ : قطعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (فلذ) .
(٤) ديوان ذي الرُّمة ، ص٢٠٢ .
(٥) ديوان ابن فُركون ، ص٢٦٩ .

الظبيَ في الجمال ، ثمَّ يوغل ابن خفاجةَ في بداوة الصّورة ، بأن يصف حاجة البدويِّ إلى القنص والصيد ، إذ لا قِرى ولا نحرَ في هذه الرِّحلة التي قد يلوي النُّعاسُ الساري فيها ، ليَّ الريحِ للأراك ، والأراك شجرٌ قويٌّ لا تلويه إلاَّ الريحُ القويَّة ، فدلَّ بذلك على أنَّه عظيمُ البأس ، لم يقدر عليه إلاَّ طول السُّرى والجهد الشَّديد الذي لواه فوق راحلته ، وَوَصْفُ نُعاس الرَّكب الذي جعله ابن خفاجة هنا يلوي المرتحل ليًّا ، ورد كثيراً في الشعر بتشبيهاتٍ مختلفة .

ومن ذلك قول ذي الرُّمة يصف ركباً غلبهم النعاس فافترشوا الحصى ، يقول[1] :

إلى فتيةٍ شُعثٍ رمى بهمُ الكرى متونَ الحصَى ليست عليها مَحَابسُ[2]

وابن خفاجة بعد أن يصف الهول والظلام ، يأتي بأبياتِ الانتشاء والتغنّي بالشجاعة ، فيقول[3] :

وسَلِ الغِنى من ظَهرِ طِرْفٍ[4] أشقرٍ يطأُ القتيلَ وصدرِ رمحٍ داعسِ[5]

وازْحَم بذاتِك شِدْقَ[6] ليثٍ ضاغمٍ[7] طلبَ الثَّراءَ ونابَ صِلٍّ[8] ناهسِ[9]

وهنا لا يختلف التغني بالشجاعة والقتال ، والقدرة على العدوِّ وأخذ الغنى

---

(١) ديوان ذي الرُّمة ، ص٣٩١ .

(٢) المحابس : جمع مِحْبَس : وهي البُسط التي تفرش للنوم ، انظر : اللِّسان ، مادة (حبس) .

(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٨ .

(٤) الطِرف : الخيل الكريم العتيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (طرف).

(٥) الدّاعس : الصمُّ من الرّماح ، وهو الغليظ الشديد الذي لا ينثني ، انظر : اللِّسان ، مادة (دعس) .

(٦) الشدق : جانبي الفم ، انظر : اللِّسان ، مادة (شدق) .

(٧) ضاغم : من الضغم ، وهو العضُّ الشديد ، وهو أن يملأ فمه مما أهوى إليه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضغم) .

(٨) الصلّ : الحيّة التي تقتل إذا نهشت من ساعتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (صلل).

(٩) ناهس : نهستهُ الحيَّة عضَّته ، انظر : اللِّسان ، مادة (نهس) .

أخذاً عن طريق الغنائم ، في موقف الحرب ، عنه في موقف الرّحلة ، فلا يخوضُ غمرة الرَّحلةِ إلاَّ الشجاع ، ولا يخوض غمار الحرب إلاَّ الشجاع ، كلُّها معان يدلُّ بها الشَّاعر على ركانةِ القلب وجسارته يقول المتنبي[1]:

تمرَّستُ بالآفاقِ حتّى تركتُها ... تقولُ أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذُّعرُ

وأقدمتُ إقدامَ الأتيِّ[2] كأنَّ لي ... سِوى مُهجتي أو كان لي عِندَهَا وِترُ

ولا تحسبنَّ المجدَ زِقّاً[3] وقينةً ... فما المجدُ إلاّ السيفُ والفتكةُ البكرُ

ويُفضِي ابن خفاجة بالشعر من التغني بالجسارةِ إلى التغنِّي بعزَّة النفس ، وهما من رحم واحدة يقول[4] :

وارغبْ بنَفسِكَ عن مقامةِ فاضلٍ ... قد قامَ يَمثُل في خصاصةِ[5] بائسِ

فالعَزيزُ يربأ بنفسِهِ عن الأفاضلِ فما بالك بغيرهم ، ويُثنِّي الشاعر البيتَ السابقَ ببيتٍ فيه تبريرٌ لمعنى الرِّحلة ، وتركيزٌ لكلِّ ما جاءَ سابقاً وهو الغايةُ والمراد ، يقول[6] :

فالحرُّ مفتقرٌ إلى عزِّ الغِنى ... فقرَ الحسامِ إلى يمينِ الفارسِ

ثم يصلُ السَّابق بالمدح فيقول[7] :

وإذا عثرت ـ ولا عثرت ـ بحادثٍ ... فركبتُ منه ظهرَ صعبٍ[8] شامسٍ[9]

فافزعَ إلى قاضي الجماعةِ رهبةً ... تضعُ العنانَ بخيرِ راحةِ سائسٍ[10]

---

(١) ديوان المتنبي ، ٢/٢٥٣ .

(٢) الأتيّ : السيلُ لا يُدرى من أين أتى ، انظر : اللّسان ، مادة (أتيَ) .

(٣) الزّق : وعاء الخمر ، انظر : اللّسان ، مادة (زقق) .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٨ .

(٥) الخصاصة : الفقرُ وسوء الحال والحاجة ، انظر : اللّسان ، مادة (خصص) .

(٦،٧) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٨ .

(٨) الصعب : البعير الذي لا يُركب ، انظر : اللّسان ، مادة (صعب) .

(٩) الشامس : الشارد الجموح ، النافر ، انظر : اللّسان ، مادة (شمس) .

(١٠) سائس : مروض مذلّل ، انظر : اللّسان ، مادة (سوس) .

ويلفتنا هنا في هذه القصيدةِ أنَّها تغنٍّ وانتشاء بالقدرة على الارتحال ، والوصول إلى الغنى بخوض الغمرةِ ، وارتياد الصعب ، ويستوقفنا أنَّها في المدح ،ولكنَّ الشاعر يربأُ بنفسِهِ كما ذكر في الشِّعر من أن يجعل الرحلةَ علَّة الطلب ،بل جعل الرِّحلةَ هنا علَّة الاستحقاق ،وضمَّنها ما تَشِي به نفسُ الشاعر من عزَّةِ نفس وضمَّنها أيضاً أن المال مطلوب ، ولا تعني عزَّةُ النفسِ تركَ المال ، وإنَّما المالُ مطيّةٌ للغنى عن الغير ، فكانت الرّحلةُ هنا مقدِّمةً للمدح ، أكثرَ من كونها رحلةً للممدوح .

وصفُ رحلة المغامرة :

ذكرنا أنَّ أسباب الارتحال في الشعر كثيرة متعدَّدة وكان منها الرَّحلاتُ العلميَّة ، والرحلاتُ في طلبِ الرزق والسعي لحياةٍ أفضل ، وكان منها أيضاً الهربُ من سطوةِ احتلال النصارى ، أو الارتحال سعياً لتسليةِ الهمِّ والبعدِ عن الأحوال النفسيَّةِ المثبِّطَةِ الموهنةِ ، وغير ذلك من أسبابَ كثيرة ، وتغنَّى الشعراءُ الأندلسيُّون في القصيدِ برغبتهم في تجاوز الأزمات والمثبّطات عن طريق الارتحال ، ولقشُوا في الشعر بالقدرةِ على اجتياز المهالك وتجاوز الشدائد عن طريق الصّور البدويَّة في وصف الرِّحلة ، وتمثُّل مشاعر البدويّ التي يرفعُ بها صوتَ القوَّة والجسارةِ والعزيمةِ في الشعر ، لأنَّ الرّحلة البدويَّة التي يقطع بها الشاعرُ الصحراء المهلكة كان تستدعي ذلك ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

هـــذا علـــى أنَّ التغـــرُّبَ مَرْكَبِـــي وتـــولُّج الفـــيحِ[2] الفســـاحِ شِـــعَارِي

فلكم أقمـــتُ غـــداةَ زُمَّـــتَ عيسُـــهم أبغـــي القـــرارَ ولاتَ حـــينَ قـــرارِ

وفيها يُلخِّص ابن زُمْرُك معنى الارتحال في نفس العربيّ ، وهو المعنى القديم البدويُّ الذي لا يزال الشُّعراءُ يرددونه ، صراحةً أو في طيَّات الصُّور ،

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٢٩ .

(٢) الفيح : الأرض الواسعة ، والفيح أيضاً شدة القيظ ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيح) .

وهو (طلب المنى والعلا) الذي لا يحوزُه إلاَّ ذو العزيمة الجسور ، يقول ابن زُمْرُك[1] :

إنَّا بـني الآمـالِ تخـدعُنا الـمُـنى ... فنخـادعُ الآمـالَ بالتَّسْـيَارِ
نتجشَّـمُ الأهـوالَ في طلـبِ العُـلا ... ونـروعُ سِـرْبَ النَّـومِ بالأفكـارِ
لا يُحرز المجدَ الخطـيرَ سـوى امـرئٍ ... يُمطِـي العـزائمَ صـهوةَ الأخطـارِ
إمَّـا يُفـاخِرُ بالعتـادِ ففخـرهُ ... بالمشـرفيَّةِ[2] والقنـا الخطَّـارِ[3]

فـ ((الرحلةُ وجهٌ من وجوه البطولةِ ومظهرٌ من مظاهر الاقتدارِ والجسارة ، والقدرة على المغامرة ومواجهة الأهوال ، وهذه المعاني تراها تنبجسُ في نفوس الشعراء مع معاني المروءةِ والنَّجدةِ ، والسخاء وبسط اليد ، وكذلك الشجاعة والجسارةِ في ملاقاةِ الأعداء ، فهي واحدة من مجموع الشمائل المرتبطةِ بالشباب والفتاءةِ والصبوة ، والتي ذكرنا أنَّها ليست بعيدة عن أُفق النسيب وأنَّ الشاعر كثيراً ما غنَّاها صاحبته ، ويرى ذلك أعذب الغناء ، وأنبله ، ولا يؤثِر به أُذناً قبل أذن صاحبته ...))[4].

ومن ذلك قولُ ابن درَّاج[5] :

ولو شـاهَدَتني والصَّـوَاخدُ[6] تَلتَظِـي ... علـيَّ ورقـراقُ السَّـراب يمـورُ[7]
أُسلِّطُ حَرَّ الـهـاجـراتِ إذا سَـطَا ... على حُـرِّ وجهـي والأصـيلُ هجـيرُ

---

(١) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٢٩ .
(٢) المشرفيَّة : السيوف المشرفيَّة ، تنسبُ إلى مشارف من أرض اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرف) .
(٣) الخطَّار : الرمح خطَّار أي ذو اهتزازٍ شديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطر) .
(٤) قراءة في الأدب القديم . دكتور محمد محمد أبو موسى ، ص٣٥٤ .
(٥) ديوان ابن درَّاج ، ص٤٢٢ .
(٦) الصواخد : الهواجر وشدَّة الحر ، انظر : اللِّسان ، مادة (صخد) .
(٧) يمور : يتحرَّك ويتماوج ، ويضطَّرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (مور) .

واستنشق النكباءَ[1] وهي بوارحٌ[2] وأستوطئُ الرَّمضاءَ[3] وهي تفورُ[4]
وللموتِ في عيشِ الجبانِ تلُّونٌ وللذُّعرِ في سمعِ الجريءِ صفيرُ
لبانَ لها أنّي من الضَّيمِ جازعٌ وأنّي على مَضٍّ[5] الخطوبِ صبورُ

فالرحلةُ البدويَّة ،كانت من الصُّور الغنيَّة في الشعر الأندلسيّ ؛ لأنَّه بها يُعبّر عن معاني الحياة ، وقوّة الصراع الذي يجده فيها ، وفيها يستطيع أن ينطلق إلى عالمٍ حقيقيٍّ أو مُتخيَّل تحملُ مشاهدُه في الشعر ، معاني الضعف والانكسارِ ، أو القوّة والعزيمة والإصرار ،فوصفَ الشعراء الأندلسيّون الارتحال ، وركبوا في سبيل غاياتهم في الشعر مطايا العزم وحداهم حادي الأمل ، وتعاطُوا في وصف الرحلة في الشِّعر أحاديثَ الشكوى ووجعَ الحياة ، يقول ابن حمديس في قصيدةٍ ميميَّةٍ يشكو فيها ارتحاله عن وطنه وتغرُّبه الذي طال ، حتى أصبح شيخاً بعد شباب ،جاعلاً من طلب العلا سبباً لهذا الارتحال[6]:

وما هيَ إلاّ غربةٌ مستمَّرةٌ أرى الشيخَ فيها بعدَ سنَّ غُلامِ
كأنَّ قَذالي[7] بالقتيرِ[8] مُعوَّضٌ قبيلةَ سامٍ[9] من قبيلةِ حامِ[10]

---

(١) النكباء : الريح المهلكة ، انظر : اللّسان ، مادة (نكب) .
(٢) البوارح : الرياح الشدائد التي تحمل التراب ، وهي ريح حارة ، انظر : اللّسان ، مادة (برح) .
(٣) الرَّمضاء : حرُّ الحجارةِ من شدّة حرِّ الشمس ، انظر : اللّسان ، مادة (رمض).
(٤) تفور : تتوقّد ، انظر : اللّسان ، مادة (فور).
(٥) المضُّ : الحرقة والألم والوجع ، انظر : اللّسان ، مادة (مضض).
(٦) ديوان ابن حمديس ، ص٤٣٢.
(٧) القذال : جماع مؤخر الرَّأسِ منَ الإنسان ، انظر : اللّسان ، مادة (قذل).
(٨) القتير : الشيّب ، انظر : اللّسان ، مادة (قتر).
(٩) سام: من أحد بني نوح عليه السلام ،وهو أبو العرب ،انظر : اللّسان ،مادة (سوم).
(١٠) حام : أحد أولاد نبي الله تعالى نوح عليه السلام ، وهو أبو السودان ، انظر : اللّسان ، مادة (حوم) .

وما شيَّب الإنسانَ مثلُ تغرُّبٍ يمرُّ عليه اليومُ منه كعامِ
وهل رُحْتُ إلاّ طالباً بالنّوى عُلا كسائلي منها للنجومِ مُسَامِ

وابن حمديس في ميميَّةٍ أُخرى ، يرى في الارتحال عن بلده التي تركها في أوَّل شبابه ضرورةً ، حكمت بها عليه ظروفُ الحرب ، فلم يجد بُدًّا من الذهاب إلى بلاط المعتمد في إشبيلية والعيش في كنفه[1] ، وهو يشبِّه هذا البعد القسريَّ عن بلدهِ بالتحريم يقول[2] :

بِحكْمِ زمانٍ مالَهُ كيفَ يحكُم يُحرِّم أوطاناً علينا فتُحرَمُ
لقد أركبَتْني غربةُ البينِ غربةً إلى اليومِ عن رسمِ الحمى بي ترسمُ

ويصف ابنُ حمديس في هذه القصيدة وصلَه الليل بالنهار ، متخذاً منهما في الشعر مطايا تجتازُ به ، يقول[3] :

إذا كلَّ عنّي من سَنَا الصُّبحِ أشهبٌ تناول حَمْلي من دُجى الليلِ أدهمُ

ويصف الصَّحراء التي اجتازها بالمضلَّة والمجهل ويطابق بين هذا الوصف ، وهداية الحادي ومعرفته بدروب الفيافي يقول[4] :

وحادٍ رَمَى بالعيسِ كلَّ مُضلَّةٍ كأنَّ عليه مجهلُ الفيحِ[5] معلمُ

وإذا كان ابن حمديس بدأ القصيدةَ بصوتٍ واهنٍ شاكٍ ، فإنَّه يعودُ ليتجاوز مرارة الغربةِ وصعوبتها ، إلى وصف العزم القويِّ الذي حدا به والرَّكبَ نحو العيشِ الرَّغيد ، أو خوضِ غمار الحرب ، التي شبَّه الأبطال فيها بـ (صِيدٍ يصيدونَ الفوارسَ والقَنَا)[6] و (يستطعمونَ السُّمرَ والبيضَ)[7] ، يقول[8]:

---

(١) انظر : الشعر العربي في صقليّة في القرن الخامس الهجري ، دكتور فوزي عيسى ، ط . الأولى ، ٢٠٠٧م ، دار الوفاء ، الإسكندريّة ، ص٢٩٥ .

(٢،٣،٤) ديوان ابن حمديس ، ص٤٠٨ .

(٥) الفيح : الأرض الواسعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيح) .

(٦،٧،٨) ديوان ابن حمديس ، ص٤٠٩ .

وقد نحرَت في كلّ شرقٍ ومغربٍ عليها[1] نحورَ البيدِ في العزم أسهمُ
وأوجفَ حَوْليها الكماةُ ضوامراً فلا سنبكٌ[2] إلاّ يساريه منسمُ[3]
فمن راكبٍ يأتي به الخصبَ بازلٌ[4] ومن فارسٍ يَصلي به الحربَ شيظمُ[5]
فإن تسرِ في ليلٍ وجيشٍ فإنّها سفائنُ برٍّ بين بحرين عُوَّمُ

والبيت الأخير ، شبَّه فيه الشاعر الرَّكائب أو العيس بالسفن ، ولكنَّه لم يجعل الصحراء بحراً كما في الصورة الجاهليَّة القديمة ، وإنَّما تخطّى تشبيه الصحراءِ بالبحرِ إلى تشبيه الليل والجيش بالبحرين .

وهذا العزم الذي جعل ابن حمديس يتجاوز الصعب في قصيدته السابقة ، شبَّههُ ابن بقي القرطبي (ت : سنة٥٤٠هـ) بالسيفِ القاطع في يد البطل المقدام .

وهي أبياتٌ فضَّل فيها قطع البيدِ وسُرى اللَّيلِ على النَّوم في الكلل ، وصهيلَ الخيلِ على أجملِ الألحان وهو تفضيلٌ للفروسيَّةِ والجسارةِ على الدَّعةِ وترفِ العيش ، يقول[6] :

لا ينفذُ العزم إلاّ أن ينفّذهُ والسيفُ يكهمُ[7] إلاّ في يد البطلِ
تهويمةٌ[8] في بساطِ البيد يهجعُها[9] أشهَى إليه من التَّهويمِ في الكَللِ[10]

---

(١) الهاء في عليها تعود على العيس في البيت السَّابق : (وحادٍ رمى بالعيسِ) .
(٢) سنبك : السنبك طرف الحافر وجانباه من قُدْم ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنبك) .
(٣) منسِم : بكسر السين طرف خف البعير ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسم) .
(٤) البازل : يقال للبعير إذا استكمل السنة الثامنة وطعن في التاسعة ، وفطر نابُه ، انظر : اللِّسان ، مادة (بزل) .
(٥) الشيظم : الجسيم الفتيّ من الناس والخيل والإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (شظم) ، وأراد به هنا الخيل .
(٦) خريدة القصر ، وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني ، تحقيق : عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، القسم الرابع ، ١٤٢/١٧ .
(٧) السيف الكهام : الكليل عن الضربة ، لا يقطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (كهم) .
(٨) التهويم : النوم الخفيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (هوم) .
(٩) الهجوع : النومِ في الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (هجع) .
(١٠) الكلل : الكلة الستر الرَّقيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلل) .

ونوبةٍ من صَهيلِ الخيلِ يسمعُها بالرَّملِ أطربُ الحائناً من الرَّمَلِ[1]

ويشبه قول الشَّاعر هنا ، أبياتاً لعنترة فيها[2] :

صباحُ الطَّعنِ في كرٍّ وفرٍّ ولا ساقٍ يطوفُ بكأسِ خمرِ
أحبُّ إليَّ من قرعِ الملاهي على كأسٍ وإبريقٍ وزهرِ
مُدامي ما تبقَّى من خُماري بأطرافِ القَنَا والخيلُ تجري

ويترددُ في صور الرّحلةِ عند الشاعر الأندلسيّ وصفُ العزم القويّ الذي يجعله يقطع الأهوال ويصبرُ على مشاقّ الارتحال دون كلل ، يقول أبو بحرٍ التجيبي[3] :

سَلِ البدرَ عنّي إن قدمتَ على البدرِ يُخبِّرك أني مِثلُه أبداً أسري
وأنّي أهفُو بالمطايَا على الوَجَا وأحملُها من حيث أدري ولا أدري
بعزمٍ يخالُ البحرَ شَربَةَ مُرتوٍ ويحسبُ طولَ الأرضِ في سعة الشّبرِ

والرحلةُ في الشّعر قد تكون ـ في معظمها ـ رحلة الحياة التي تستدعي ممّن يعيشها القدرة على تجاوز الأزماتِ وخوض الغمرات ، وهو مغزى جرى تضمينُه كثيراً في الشعر العربيّ ، حين يصف الشاعرُ الجاهليُّ حبًّا مضى ، وأطلالاً واهنةً ثمَّ (يعدّ عن ذا) ويقول : (وانمِ القُتودَ على عَيرانةٍ أُجُدِ)[4] ، وهي عيرانةُ العزم ، والقوّة ، والقدرةِ على تركِ الماضي بآلامِهِ ، وأخذ العدَّةِ والعتادِ للمستقبل الذي يتطلّعُ الشاعرُ إليه .

وإذا كانت نبرةُ القوَّةِ والعزمِ في وصف الرحلةِ قويَّةً ظاهرةً عند بعض

---

(١) الرَّمل : ضربٌ من العروض ، انظر : اللّسان ، مادة (رمل) .

(٢) ديوان عنترة ، ص٨٦ .

(٣) ديوان أبي بحرٍ التجيبي ، ص١١٠ .

(٤) ديوان النابغة ، ص٧٨ ، والبيت :

فعدِّ عما ترى إذ لا ارتجاعَ له وانمِ القتود على عيرانةٍ أُجُدِ

الشعراء الأندلسيين فإنَّها قد تَخْفِتُ وتغيب ، بينما يعلو صوتُ الحزن والانكسار عند البعض الآخر ، كما في قول الرُّصافي البلنسي[1] :

يا عمروُ أَينَ عُميرٌ من كُـدَى[2] يمـنٍ لقد هَوَتْ بكَ يـا عمـرُو الرِّيـاحُ وبي
طـولُ ارتحـالٍ واحـظٍ غـيرُ طائلـةٍ وغيبةٌ نـاهزَتْ عَشْـراً مـن الحِقَـبِ

ويهزُّ الشاعرُ الحنين إلى المكان (الكدية البيضاء) [3] فينتشي بالحديث عنه (عاد الحديث إلى ما جرَّ أطيبه) [4] وعندها لا يحبِّذُ السُّرى ، ولا يهلكُ المطيَّ في السير ، وإنَّما يقرِّرُ الإناخة بالشِّعر في رحاب المكان ، فيقول[5]:

راوِحْ بنا السَّـهلَ مـن أكنافِها وأرِحْ ركابَنـا ليلَهـا هـذا مـن التَّعـبِ
وانضَحْ جوانبَها مـن مقلتيـكَ وسَـلْ عن الكثيبِ الكريمِ العهـدِ في الكُثُـبِ

وكان الرُّصافي ((قد خرج صغيراً من وطنه ، فكان أبداً يُكثر الحنين إليه ، ويُقْصرُ أكثر منظومهِ عليه ومحاسنه كثيرةٌ فيه)) [6].

ومن جميل قوله في وطنه[7] :

بلادِي التي ريشتْ[8] قُويدِمتي[9] بـهـا فُريخاً[10] وآوتني قرارتـهـا[11] وكْرا[12]

---

(١) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص٤٣ .
(٢) الكدية : الأرض الصلبة المرتفعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (كدا) .
(٣،٤) ديوان الرصافي ، ص٤٣ ، وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب ، في كتابه الإحاطة أنَّ من قرى غرناطة ، (قرية الكدية)، انظر : الإحاطة ، ١/١٣٠ .
(٥) المصدر السَّابق ، ص٤٤ .
(٦) الإحاطة ، ابن الخطيب ، ٢/٥٠٧ .
(٧) ديوان الرُّصافي ، ص٦٨ .
(٨) ريشت : نبت ريشها ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريش) .
(٩) قويدمتي : تصغير قادمتي ، وهي أربع ريشات في مقدّم الجناح ، انظر : اللِّسان ، مادة (قدم) .
(١٠) فريخ : تصغير فرخ ، وهو ولدِ الطائر ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرخ) .
(١١) القرارة من الأرض : المطمئن المستقر ، وهي من مكارم الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرر) .
(١٢) وكر الطائر : عشّه ، انظر : اللِّسان ، مادة (وكر) .

فشبَّه نفسَه بالفرخ الصغير ، ووطنه بالوكر الذي رُبِّيَ فيه ، واستخدم أُسلوب التصغير في دلالةٍ على زمن الطفولةِ والحاجةِ إلى الرِّعاية .

فقد يتغلّب شعور الأسى والإحساسُ بانكسار النفس أمام سطوةِ الحوادث وتقلُّب الأيام ، وتضعف القدرة في قلب الشاعر على المجابهة ، وهنا يصبح الارتحالُ محاولةً للهرب من الواقع الأليم ،يقول محمد بن أبي العبَّاس[1]:

وهـــل أحيـــا بقـــربٍ إنَّ عُمـــري ... تقاضـــتْهُ الظَّعـــائنُ والحمُـــولُ
أحـــلُّ بمعهـــدٍ وأزولُ عنـــهُ ... فهـــا أنـــا لا أحِـــلُّ ولا أزولُ
فمـــن بـــينٍ إلى بـــينٍ خَيـــاني ... كـــأني بـــين غُيَّـــابٍ رســـولُ

والارتحال في الشعر ـ في معظمه ـ مُنْعطَفٌ قويٌّ في التحوُّل الإنسانيّ من القوّة إلى الضعف أو العكس ، فكما قد يرتحل الشاعرُ الأندلسيُّ في الشّعر ـ كما ارتحل البدويُّ ـ على أثر محبوبةٍ ارتحال الضعيف المحبِّ ، كما في قول أبي بحرٍ التجيبي[2] :

أيانسُ باللـــذاتِ قلـــبي ودونـــهـــم ... مرامٍ يجـــدُّ الرَّكـــبُ في طيِّهـــا شـــهرا
. . . .
ضربتُ غُبارَ البيدِ في مُهرَقِ[3] السُّـــرى ... بحيث جعلتُ اللَّيـــلَ في ضـــربِهِ حِبْـــرًا

وكما في قولٍ لابن جابر الهوّاري[4]:

قـــام حـــادي الرَّكـــابِ لـــيلاً فغنَّـــى ... فاســـتقامَ السُّـــرى وثـــار الغـــرام
قيـــل : نـــام الأنـــامُ فـــاهجعْ قلـــيلاً ... قلـــتُ دونَ الحبيـــبِ لســـتُ أنـــام

---

(١) زاد المسافر وغرَّةُ محيا الأدب السافر ، أبو بحر التجيبي ، تحقيق : محمد بن شريفة ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.الأولى، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص٣٥٩.
(٢) ديوان أبي بحر التجيبي ، ص١٠٨.
(٣) المهرق : الصحراء الملساء ، وقيل للصحراءِ مُهرَق تشبيهاً لها بالصحيفة ، انظر : اللّسان ، مادة (هرق) .
(٤) نفح الطيب ، المقّري ، ٣٥٣/٧ .

فكذلك قد يتمرَّدُ الشاعرُ على علائقِ الهوى ، ويتركُ الصاحبةَ المحبَّة المشفقةَ عليه من المخاطرِ في سبيل مجدٍ ارتآه وغايةٍ سعى إليها ، يقول ابن درّاج[1]:

دعـــي عزمـــاتِ المستضـــامِ تســـيرُ ... فتُجـــدُّ في عـــرضِ الفَـــلا وتَغُـــورُ
لعلَّ بما أشـــجاكِ مـــن لوعـــةِ النَّـــوى ... يُعَـــزُّ ذليـــلٌ أو يُفَـــكُّ أســـيرُ
ألم تعلمي أنَّ الثَّواءَ[2] هـــو التَّـــوى[3] ... وأنَّ بيـــوتَ العـــاجزين قبـــورُ
ولم تزجـــري طـــيرَ السُّـــرى بحروفهـــا ... فتنبئـــكِ إن يَمـــنَّ فهـــي ســـرورُ

وفيها يصف مغالبةَ النفس هواها في أمرِ الرِّحلة ، ولا يكتفي بمشهد استبقاء الصاحبة له ، وإنّما يزيدُ من قوَّة الإغراء بوصف عاطفةِ الأبوّة التي تشدُّه نحو صغيره ، ومع ذلك لم تثنِهِ عن عزمه يقول[4] :

ولـــمَّـــا تـــدانت للوداعِ وقـــد هَفَـــا ... بصـــبري منـــها أنَّـــهُ وزفـــيرُ
تناشـــدني عهـــدَ المـــودَّةِ والهـــوى ... وفي المهـــدِ مبغـــومُ[5] النـــداء صـــغيرُ

ويأتي ابن درّاج بمشهد الصاحبةِ الباكيةِ في قصيدةٍ أخرى يقول فيها[6]:

كُفِّـــي شـــئونكِ[7] ســـاعةً فتـــأمَّلي ... في ليلـــها بُشـــرى الصـــباحِ المقبـــلِ

وفيها يطلب منها أن لا تثبِّطَ العزم في نفسِه[8] :

لا تخـــذلي بـــالعجز عزمـــي بعـــدما ... شـــافهتُ أعجـــازَ النجـــومِ الأُفَّـــلِ

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص٤٢٠ .
(٢) الثواء : طول المقام ، انظر : اللّسان ، مادة (ثوا) .
(٣) التّوى : الهلاك ، انظر : اللّسان ، مادة (توه) .
(٤) ديوان ابن درّاج ، ص٤٢١ .
(٥) المبغوم : الولد ، والبغام الصوت الغير مفهوم ، انظر : اللّسان ، مادة (بغم) .
(٦) ديوان ابن درّاج ، ص٥٥٧ .
(٧) الشئون : عروق الدموع من الرّأسِ إلى العين ، والدموع تخرج من الشئون ، انظر : اللّسان ، مادة (شأن) .
(٨) ديوان ابن درّاج ، ص٥٥٧ .

وهذا الخطاب للصاحبةِ منزعٌ من منازعِ البيان في خطاب الصاحبةِ في الشعر الجاهليّ ، وما بعده أيضاً ،وهو من الصيغ والصور العريقة في الشعر العربيّ - والبداوة مظهر من مظاهر عراقةِ الشّعر - من مثلِ قول عروة ابن الورد[1] :

دعيني للغنى أسعى فإنّي رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ

ومن مثل قول الأعشى مستبدلاً ابنتهُ بالصاحبة[2] :

تقول بِنْتي وقد قرَّبتُ مُرْتَحلاً يا ربِّ جنِّب أبي الأوصابَ والوجَعَا
واستشفعتْ من سَراةِ الحيّ ذا شرفٍ فقد عَصَاها أبوها والذي شفَعَا

وهي صورة ذاتَ مغزى في الشعر أراد به صاحبه أن يبين عن شدّة العزم ، وقدرتِهِ على تجاوز العاطفةِ المثبِّطةِ إلى العقل الواعي المحفِّز ، وهنا تنعطف الرحلة لتتخذ في الشعر معنى القوَّةِ المولودةِ من رحم الضعف ، والعزيمةِ المتخلِّصةِ من وشائجِ الوهَن ، ومن ذلك قصيدةٌ لموسى بن زيَّان ، يصف فيها الصاحبة باللائمةِ : (ولايمةٍ لمَّا ركبنا إلى العُلى)[3]، ويصف كيف حاولت أن تثنيهِ عن عزمه : (أتنسى هوى الدُّما؟)[4].

ومع ذلك فإنه يدفع عنه هذا الاسترحام دفعاً ، فيقول[5] :

إليكِ فإنّا لا يردُّ اعتزامَنا مقالةُ باكٍ أو ملامةُ لائمِ
ألم تدرِ أنّ اللومَ لومٌ وأنّنا لنجتنبُ اللّومَ اجتنابَ المحارمِ

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، شرح ابن السكيت ، تحقيق : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٥م ، ص٦٣ .

(٢) ديوان الأعشى ، ص١٩٩ ، وأوّلها :

بانت سعادُ وأمسى حبلها انقطعا واحتلّت الغمر فالجدين فالفرعَا

(٣،٤،٥) الإحاطة ، ابن الخطيب ، ٣/٢٨٩ .

وقد حوّر ابن شهيد في هذا المشهد ، واستبدل النفسَ بالصاحبةِ ، واستبدل بمحاولةِ الثني عن العزم العكس ، وهو الحثُّ على المضاء والارتحال ، واتخذ هذا المنحى في الشعر عنده صيغةً حواريَّة أجراها بينه وذاته ، فقال[1]:

وقالت النفسُ لـمَّـا أن خلوتُ بـهـا ... أشكو إليها الهوى خلـواً مـن الـنِّعمِ
حتَّامَ أنـت علـى الضَّـراءِ مضـطجعٌ ... معـرِّسٌ[2] في ديـارِ الظُّلـمِ والظُّلَـمِ
وفي السُّرى لكَ لـو أزمعـتَ مُـرتحِلاً ... برءٌ من الشـوقِ أو بـرءٌ مـن العـدمِ

وهكذا تتخذ الرحلةُ البدويَّة في الشعر مناحٍ شتى ودلالاتٍ متعددةٍ ، يرمي بها الشَّاعرُ الأندلسيُّ إلى ما يعنُّ له من خطراتِ النفس ، ويسبغُ على عناصرها من ذاتِهِ ، ما يجعلُ لها طابعاً خاصًّا ومذاقاً مميِّزاً ، ويوغِل الشاعر الأندلسيُّ في التبدّي ، فيصف طريق أهل البادية في ارتحالهم ، وهو الصحراء .

* * *

(١) ديوان ابن شُهيد ، ص١٢٢ .

(٢) معرّس : من التعريس وهو النزول والاستراحة في المكان ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرس) .